

الطبقات في المجتمع المعرفي

الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز ربيع

تشير التطورات الجارية في المجتمع المتحول نحو المعرفة إلى أن من المتوقع أن ينقسم المجتمع المعرفي إلى خمس طبقات اجتماعية اقتصادية تحتوي في داخلها نفس العدد من الفئات الاجتماعية الثقافية. ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي أول دولة تدخل مرحلة الانتقال من عصر الصناعة إلى عصر المعرفة، فإن التحليل الخاص بالطبقية سوف يركز على المجتمع الأمريكي. أما تلك الطبقات والفئات فهي:

الطبقة المميزة: من المتوقع أن تمثل هذه الطبقة النخبوية حوالي 3% من السكان فقط، وأن تتكون أساساً من النخب السياسية والاقتصادية والمالية والإعلامية والعسكرية وكبار المحامين والأطباء والاقتصاديين، وأن تتحكم في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية الرئيسية، ما يجعلها صاحبة القرار فيما يتعلق بإدارة شؤون المجتمع. وبسبب خلفيتها المعرفية والاقتصادية، فإن من المتوقع أن يتجه أعضاء هذه الطبقة إلى تكديس الثروات والاستحواذ على مصادر القوة، واستخدام العملية الإعلامية والمؤسسات الخيرية لتشكيل وإعادة تشكيل مواقف العامة من الناس بالشكل الذي يخدم أهدافها. من ناحية أخرى، من المؤكد أن تعيش هذه الطبقة في عزلة شبه كاملة عن الشعب، ما يجعلها غير قادرة على فهم مشاعر الناس العاديين، وغير معنية بالتعرف على أحوالهم المعيشية وتفهم مطالبهم واحتياجاتهم.

الطبقة العليا: من المتوقع أن تمثل هذه الطبقة شبه النخبوية حوالي 10% من السكان، وأن تتكون أساساً من غالبية العلماء والمحامين والأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات، وكبار الضباط في القوات المسلحة وأجهزة الاستخبارات، وكبار الموظفين في الدولة والشركات والبنوك والمؤسسات الإعلامية والاستشارية، والمتقنين العاملين في مراكز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية، خاصة الباحثين والمحللين الذين لا همّ لهم سوى تبرير الحروب وتأمين دعم المواطنين لها. وبسبب خلفيتها المعرفية والتعليمية، فإن من المتوقع أن يشترك أعضاء هذه الطبقة مع أعضاء الطبقة المميزة في توجهاتهم الثقافية وطموحاتهم الاجتماعية والسياسية، ولكن ليس في الثروة أو النفوذ. وهذا يعني أن الطبقة العليا سوف تشكل امتداداً للطبقة المميزة، وظيفتها الأساسية مساعدة تلك الطبقة على إحكام قبضتها على مصادر الثروة والمعرفة في المجتمع، وتمكينها من استغلال عامة الناس من دون حاجة للاحتكاك بهم مباشرة.

الطبقة الوطنية: من المتوقع أن تمثل هذه الطبقة حوالي 40% من السكان، وأن تضم في صفوفها أساساً صغار التجار، وموظفي البنوك والشركات، والمعلمين والموظفين الحكوميين، والفنيين العاملين في الخدمات، وأصحاب الحرف والمطاعم، وعمال الصناعة، ونسبة جيدة من المتقاعدين والعاملين في القوات المسلحة، وصغار المزارعين. كما أن من المتوقع أن تترث هذه الطبقة إرث الطبقة الوسطى في المجتمع الصناعي من حيث مستويات التعليم والقيم والمواقف وطرق التفكير والانتماء والدخل. وفي ضوء خلفيتها الثقافية وأوضاعها المعيشية، فإن من المتوقع أن تشكل هذه الطبقة قوة استقرار واستمرارية، وليس عامل تغير وتطور في حياة المجتمع المعرفي. وبسبب محدودية معارفها العلمية وتراجع الأمن الوظيفي في المجتمع المعرفي ككل، فإن من المتوقع أن يتجه جزء كبير من أعضاء هذه الطبقة إلى العمل في الحكومة والخدمة في القوات المسلحة. وبالنسبة للبعض، من المتوقع أن تصبح الخدمة في القوات المسلحة الفرصة الوحيدة للحصول على وظيفة دائمة، ودخل جيد، وضمان اجتماعي، وراتب تقاعدي بعد قضاء عمر في خدمة مؤسسة ذات تاريخ ملطخ بالدم والدمار والعار.

الطبقة المُغتربة: من المتوقع أن تمثل هذه الطبقة حوالي 40% من السكان أيضاً، أي ما يعادل ضعف حجم الطبقة الفقيرة في المجتمع الصناعي، وأن تضم في صفوفها الفقراء العاملين في الخدمات في الأسواق التجارية والمطاعم والعيادات والمستشفيات والمزارع والبيوت وغيرها من أعمال لا تحتاج لتعليم رسمي جيد أو مهارات فينة، والمتقاعدين الذين يعيشون على الضمان الاجتماعي والمعونات الحكومية، وغالبية المهاجرين الجدد وأبناء الأقليات العرقية والثقافية والدينية التي تتعرض للتفرقة والاضطهاد. وفي ضوء تباين الخلفيات الثقافية وانخفاض مستويات التعليم والدخل لهؤلاء، فإن من المتوقع أن يميل أعضاء هذه الطبقة إلى التركيز على تماسك الأسرة، والحفاظ على التقاليد والقيم المتوارثة، والعزلة عن المجتمع الأكبر بقدر الإمكان، وعدم الخوض في القضايا السياسية والاجتماعية.

الطبقة الغاضبة: من المتوقع أن تمثل هذه الطبقة حوالي 5% من السكان، وأن تضم في صفوفها السجناء وقدامى السجناء ممن تمت إدانتهم بارتكاب جرائم سابقاً، والعاطلين عن العمل بشكل شبه دائم، والمشردين، والمدمنين على المخدرات والمتاجرة فيها، ومحترفي الجريمة. وفي ضوء خلفيات هؤلاء الثقافية وأوضاعهم المعيشية، فإن من المتوقع أن يصبح أعضاء هذه الطبقة مصدراً للجريمة والعنف المنزلي، ما يجعل غضب هؤلاء يتجه نحو المجتمع والذات بالتساوي تقريباً.

من ناحية أخرى، من المتوقع أن تشكل الطبقتان الأولى والثانية فئة ثقافية واحدة، تُوحدها معارف ومواقف وقيم وطموحات مشتركة، ولكن تفرقها مستويات الثروة والنفوذ. وفيما تعمل الأمور المشتركة

على خلق فرص تُتيح صعود بعض أعضاء الطبقة الثانية إلى الطبقة الأولى، تخلق الأمور المختلفة عقبات تجعل عملية الصعود صعبة، تعتمد أساساً على الروابط العائلية وتجارب الحياة الدراسية المشتركة، وليس على المعرفة والعمل والمثابرة. وبسبب ما يساور أعضاء هاتين الطبقتين من طموحات شخصية، فإن من المتوقع أن لا تشكل القيم التقليدية والقضايا العامة والأخلاق عقبة يقفون أمامها طويلاً متسائلين عن شرعية ما يفكرون به، ما يجعل من الصعب عليهم كسب ثقة الشعب.

أما الطبقة الثالثة والرابعة، فسوف تشترك في قيم ومواقف وتقاليد متشابهة، ولكن غير متطابقة، لأن كل طبقة تتكون من فئات دينية وأقليات إثنية وثقافية ذات مستويات متفاوتة من حيث الدخل والنفوذ. إلا أن طبيعة تركيب كل طبقة من النواحي الثقافية والاجتماعية من المتوقع أن تجعلها ميالة لتكوين ذكريات جماعية تساعد على تماسكها والحيولة دون سقوط أعداد كبيرة منها في مستنقعات الفقر المدقع والانحراف. وهذا من شأنه أن يُعزز الثقة بين أعضاء كل فئة دينية وإثنية داخل كل طبقة بوصفها سمة ثقافية تقليدية. لكن الثقة التقليدية هذه من المتوقع أن تأتي على حساب الثقة الاجتماعية، ما يتسبب في شيوع الفساد داخل كل فئة، واتجاه الأثرياء والأقوياء إلى استغلال الفقراء والضعفاء والهيمنة عليهم.

أما الطبقة الأخيرة، فمن المتوقع أن تعيش حياتها في الظلال، في عالم لا ثقافة مميزة له، ما يدفع كل طبقة إلى الابتعاد عنها وتحاشي الاحتكاك بها. وهذا سيجعلها تشعر بالحرية لمخالفة كل قانون أخلاقي ومدني لإعتقادها بأنه يستهدف خدمة غيرها من طبقات مُعَمَّمة، كما أنه سيجعل العلاقات فيما بين أعضائها ضعيفة لا تقوم على قيم وتقاليد راسخة أو مصالح مشتركة. ولما كانت غالبية أعضاء هذه الطبقة من الفقراء والضعفاء، فإن من المتوقع أن يتجه الأقوياء إلى استغلال الضعفاء والسيطرة عليها وتحقيرهم.

من ناحية ثانية، من المتوقع أن تقوم الطبقة المميزة بدور العقل المفكر في المجتمع المعرفي، فيما تقوم الطبقة العليا بدور القلب والجهاز العصبي. أما الطبقتين الوطنية والمغتربة فمن المتوقع أن تقوموا بدور الأطراف التي تحمل الجسم وتمكنه من التنقل من مكان لآخر وتضع الطعام في فمه، فيما تقوم الطبقة الأخيرة بدور الطحالب التي تنمو في المستنقعات، وينظر المجتمع إليها بوصفها نباتات سامة.

ولما كانت الثقافات نتاجاً حضارياً مميزاً، فإن الناس الذين ينتمون لثقافات متباينة يعيشون في كنف حضارات متباعدة. لذلك، فيما يعيش أعضاء الطبقتين المميزة والعليا في حضارة المعرفة وتعكس طرق حياتهم أخلاقيات وقيم ومواقف وجشع تلك الحضارة وميلها إلى الفردية، يعيش أعضاء الطبقتين الوطنية والمغتربة في كنف حضارة الصناعة إلى حد بعيد، وتعكس طرق حياتهم قيم ومواقف وأخلاقيات تلك

الحضارة وميلها إلى الحرص على العلاقات العائلية والروح الجماعية. أما أعضاء الطبقة الغاضبة فيعيشون في عالم تسوده ثقافة ضبابية مشوشة لا سمات مميزة لها.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com